ملف
٥

عرفات في مرآة ناصرية
جوزيف سماحه

عاش ياسر عرفات في عوالم كثيرة.

بدأ حياته النضالية في ظلّ الانقسام الدولي إلى معسكرين، ونهوض العالم الثالث، وتقدم حركة التحرر الوطني العربية. كانت الأيديولوجيا اليسارية، بتنويعاتها العديدة، تغلب على القوى الاستقلالية وبدا أنّ الاشتراكية هي غاية الكفاح الاستقلالي. لم يكن جزءا عضوياً من هذه البيئة. غير أنّه التقط معنى اللحظة الفلسطينية فيها، وأسس حركة "فتح" التي سيثبت لاحقا أنها على خلاف غيرها من حركات التحرر تستقبل وافدين من اليسار ولا تدفع بالجذريين من بينها إلى صفوفه.

بدأ يعرف "مجده" مع تراجع الحركة القومية العربية، واشتداد عود اليمين العربي، ودخول العالم عقد الانفراج الدولي في السبعينيات.

استمر على رأس "فتح" ومنظمة التحرير الفلسطينية بعد الضربات القاسية التي أنزلت بقوى

جوزيف سماحة، كاتب لبناني – بيروت

الثورة العربية في نهاية السبعينيات، وتجدد الحرب الباردة مطلع الثمانينيات، وتصدع الممانعة العربية لإسرائيل والولايات المتحدة. وإخراج الثورة الفلسطينية من القاعدة اللبنانية بعد إخراجها من القاعدة الأردنية، وتأكّد أنّ اليمين الإسرائيلي بات يهدد هيمنة الحركة العمالية ضمن الحركة الصهيونية.

ابتعد عن أرضه جغرافيا في الثمانينيات حين كانت تتجمع نذر التحول الدولي والإقليمي الكبير بانهيار المعسكر الاشتراكي، وتمفصل ذلك على الانعطافة التي أحدثتها الحرب على العراق بعد غزو الكويت. لكنّه دارى هذا الابتعاد بتشجيع الانتفاضة الأولى وبإحداث اختراق في مجال انتزاع الاعتراف، وبالإيحاء الواضح بأنّه أكثر استعداداً لتسوية تمثل شكلاً متراجعا عن البرنامج الوطني المرحلي الذي أقرّ في ١٩٧٤.

واكب على طريقته في التسعينيات القبول العربي بالحلّ السياسي، غير أنّه انفرد عنه في ١٩٩٣ ووافق على عودة مشروطة إلى أرض الوطن، وحصل ذلك في سياق تركيز الانفراد الأميركي بإدارة الأزمات الإقليمية في العالم.

رسم خطا أحمر يمثّل الحد الأدنى من المطالب الوطنية الفلسطينية، ورفض التنازل عنه في وقت كانت إسرائيل تختار أرييل شارون لقيادتها، وتفجيرات ١١ أيلول تدخل العالم في منعطف جديد، واحتلال العراق يؤكّد عدوانية الانفراد الأميركي المتحالف مع التوسعية الإسرائيلية. راقب من موقع حصاره في المقاطعة (ورعى) الانتفاضة المعسكرة، كما راقب صعود التحدي الأصولي ل "فتح".

. . . ثم رحل مصرّاً على إمكانية "تحرير" بعض فلسطين بالضّد من عودة الاستعمار المباشر إلى المنطقة، وبالضّد من انقلاب الأولويات الذي يجعل تدجين الضحايا شرطا مسبقا ليمنّ عليهم الجلاّد بالقليل. هذا إن فعل.

كانت الكويت عاصمة لثورته، ثم عمان وقت كانت القاهرة عاصمة العرب، ثم بيروت مع بدايات الانهيار، ثم تونس في ظلّ التخلّي، ثم رام الله في ظلّ احتمال التسوية، ثم المقاطعة في رام الله في ظلّ الحصار. كانت الأرض تضيق تحت قدميه لكنّه يعاند. وبدا لفترة أنّه يتحمّل وحده، مع شعبه، أو بعض شعبه، الأعباء المتراكمة للمشروع الصهيوني في نسخته التوسعية،

وللاندفاعة الأميركية، وهما، المشروع والاندفاعة، معنيان بما يتجاوز فلسطين كثيرا.

لن نفهم عرفات جيدا إلا إذا انطلقنا من الفرضية القائلة بأنّ الثوري في الثورة الفلسطينية ربما يكون انتهى عام ١٩٧٠. فمنذ ذلك الزمن، والصراع لا يدور على الدور الاستعماري لإسرائيل بل على حجم الكيان. ليس هذا بالقليل طبعاً في هذه الحالة خاصة. ولعلّ قيمة عرفات أنّه أبقى الصراع مشتعلا طيلة ثلاثة عقود ونصف اخترقتها مواجهات وتسويات لا تحصى. فعل ذلك قبل أن يرحل محاطا بغموض موته، وغموض دوره، وغموض المصير الفلسطيني.

إلاّ أنّ الغموض الأخير لا ينفي حقيقتين راسختين: الشعب الفلسطيني موجود بالقوة في انتظار أن يوجد بالفعل، وعرفات لاعب كبير في ذلك، بل اللاعب الكبير، والشعب الفلسطيني مدرك لحقيقة أنّ الانوجاد يمرّ في بوّابة التسوية. ولعرفات مساهمة رئيسية في إضفاء هذه الواقعية على التطلب الوطني.

كان ياسر عرفات في نهاية العشرينيات بداية الثلاثينيات عندما دخل المعترك. أي أنّه كان فتيّاً. وكان، برغم ماضيه الفكري أو بسببه، يملك الوعي المناسب لعمره. كان يريد تشكيل الخاص الفلسطيني في العام العربي ومنع الآخرين من الانصراف إلى هموم لا تعطي استعادة الأرض المسلوبة في ٤٨ الأولوية المطلقة.

لم تكن "فتح"، بقيادته، تخفي أنّ مشروعها هو "التوريط". ولقد قيل الكثير من النقد في هذه "النظرية". إلا أنها، عند التدقيق فيها، تظهر أنّ عرفات يبني حساباته على وجود قدر من العداء الرسمي العربي (والكثير من العداء الشعبي) لإسرائيل ما يجعل "التوريط" ممكناً. سعى إلى إبقاء الشرارة التي تبقي الصراع ساخناً وتجعل الحرب باستمرار واردة. أراد قطع الطريق على برامج البناء الداخلي في الأقطار العربية، وبعضها غير مستقل. حاول تحكيم الجزء الفلسطيني بالكلّ العربي في ترجمة لمعنى "فلسطين قضية العرب المركزية" تغفل عن أنّ القضية المركزية فعلا هي وحدة العرب بعد استقلالهم وأنها تمرّ بالصراع مع المشاريع الاستعمارية ألام، وتحاصر إسرائيل في دورها، كقاعدة متقدمة، قبل أن تطرح مصيرها ككيان.

تجدر الحقيقة القول انه، في تلك المرحلة، تلقّى تأييداً هجيناً من أقصى اليمين وأقصى اليسار مع دعم خاص ممن لا يعترفون أو لا يستطيعون المشاركة في المعركة الكبرى (إما لأنهم لا يملكون الإرادة السياسية ولا المصلحة، وإمّا لأنهم بعيدون جغرافياً). وكان بين هؤلاء من يعادي حركة

القومية العربية وقائدها جمال عبد الناصر ومن يبحث عن تغطية "جذرية" لموقعه المساوم.

عرفات لم يكن مهتما بمصادر التأييد. وعرفات الشاب لم يكن مدركا لما يطرأ على العلاقات الأميركية الإسرائيلية في الستينيات، ولا على الوضع الدولي بعد انقسام المعسكر الاشتراكي، ولا على لحظة الانتقال الأميركي إلى الهجوم في أفريقيا وآسيا والعالم العربي.

لقد أورثت تلك المرحلة العمل الوطني والقومي العربي أحقادا مستمرة إلى اليوم وذلك بالرغم من انقلاب الأوضاع. ففي تلك الأيام لم يكن لعرفات أن ينافس عبد الناصر. كان الثاني صاحب المشروع الأكثر تبلوراً في مواجهة الاستعمار وإسرائيل. سوف "ينتظر" عرفات سنوات قبل أن تنتقل هذه الصفة إليه إنما في مضمونها الرمزي الذي لا يعوّض خسارة مصر.

لا شكّ في أنّ سياسة التسخين وعرفات جزء منها إلى جانب ما أسميناه أقصى اليمين، وأقصى اليسار العربيين، قدّمت مبررات لمشروع أميركي-إسرائيلي أصلي: التخلص من جمال عبد الناصر.

كلاّ، لم تحصل حرب ٦٧ لأنّ إسرائيل تريد التوسع الجغرافي، حصلت تنفيذاً لقرار دولي بضرب الناصرية وجاء التوسع في هذا السياق. أي أنّ الكيان الإسرائيلي ازداد حجماً في سياق نجاح الدور الإسرائيلي في بهدلة عبد الناصر.

كان من الطبيعي أنّ واشنطن وإسرائيل اعتبرتا ما حصل انتصارا. لقد حاولتا، بنجاح، إزاحة عقبة تشكّل مصدر القلق الهائل للقيادة الصهيونية منذ أواسط الخمسينيات. ولكن المفارقة أنّ قوى عربية تصرفت كأنّ عقبة أزيحت من دربها.

لقد كانت هذه حالة الثورة الفلسطينية وبعض قواها تحديدا. نشأ انطباع يقول إنّ المجال بات مفتوحا لتجذير المعركة، لنقلها من قيادة رسمية إلى قيادة شعبية، من الجيوش النظامية إلى الكفاح المسلّح الخ... غير أنّ الكثيرين تصرّفوا باعتبار أنّ العقبة إنما أزيحت من درب القوى اليمينية العربية (الإسلام السياسي في ذلك الوقت جزء من هذه القوى). أدرك اليمين العربي أنّ برنامج التغيير الداخلي اهتزّ، وأنّ "الحليف" الأميركي بات في موقع أقوى، وأنّ انكسار القيادة الناصرية سيرغمها على تسويات داخلية وخارجية. شهدنا بعد عدوان ٦٧ وحصيلته المدوّية هجوما يمينيا محافظا عربيا على الناصرية كان اليسار العربي الجديد، المتشكّل حول الثورة الفلسطينية والمستلهم فورات أخرى في العالم، ومن دون إرادة منه، أو وعي، أداة من أدواته.

كان ذلك تطبيقا لمقولة رائجة تقول أن حركات شعبية مسؤولة، مثل الناصرية، لا تؤخذ إلاّ من على يسارها وباسم شعارات أكثر راديكالية منها.

تشكّل المرحلة بين ٦٧ و٧٠ حقبة معقّدة وقابلة لتأويلات.

انصرف عبد الناصر المهزوم إلى بناء الجيش المصري وإيقاف مصر على رجليها. واضطرّ، في سبيل ذلك، إلى الاحتماء بالقرارات الدولية وصولا إلى مبادرة روجرز. أدرك أنّ عليه تعزيز المكوّن الفلسطيني الذي كان في ذلك الوقت يتلقى أيضاً دعم اليمين العربي المتهرب، بهذه الجذرية الشكلية، من تحمّل الأعباء المكلفة، سياسيا وماديا، لمساعدة عبد الناصر في التحضير لمعركة محو آثار العدوان.

عاش عرفات لحظة تقاطع نادرة في دعمين موجهين نحوه من مواقع متباينة. وعاش أيضاً تعلّقا شعبيا عربيا ب "الفدائي" المقاوم الذي ينير شمعة في الظلام الدامس. وجاءت معركة الكرامة في ٦٨ لتوحي أنّ هذه الشمعة قابلة لأن تتحول إلى نور يعمّ المنطقة. لا شكّ في أنّها دفعت الثورة الفلسطينية إلى المقدمة، ولا شكّ في أنّها كانت حاجة سيكولوجية، ولكن لا شكّ أيضا في أنها أثارت الالتباس حول الفرق بين الصمود في وجه وحدة عسكرية تعمل خارج "أرضها" وبين العدّة المطلوب إعدادها من أجل فرض التراجع على إسرائيل. إنّ حرب الاستنزاف، بهذا المعنى أهمّ من معركة الكرامة بدلالاتها ومعانيها وتشكيلها حلقة ربط بين هزيمة مؤكدة ومعركة موعودة.

قلنا إنّ عبد الناصر قرر تعزيز المكوّن الفلسطيني مرموزا إليه بياسر عرفات المنتقل إلى قيادة منظمة التحرير. لقد سخّر دبلوماسيته ووزنه في سبيل ذلك محوّلا الحركة الوطنية الفلسطينية إلى جزء أساسي من استراتيجيته. غير أنّ هذا التعزيز، المحسوب والخاضع لاعتبارات كثيرة، تجلّى في أمرين:

أولاً ـ لقد تدخّل عبد الناصر لرعاية "اتفاق القاهرة" (١٩٦٩) بين السلطة اللبنانية والمقاومة. ولعلّ هذه مناسبة للقول إنّ كلّ المزاعم عن دور هذا الاتفاق في التأسيس لانهيار لاحق للدولة اللبنانية باطلة. فالاتفاق، في المنظور الناصري، مؤقّت إلى حين تجهز مصر للحرب. وهو إنقاذ للبنان من التشرذم الذي تقود إليه تناقضات داخلية سعّرها الحياد السابق في الصراع مع إسرائيل. كلاّ، ليس الاتفاق إحالة لأعباء المعركة إلى الفلسطينيين واللبنانيين، إنّه حماية لمشروع مشاغلة إسرائيل بواسطة "الأشقّاء الصغار" إلى أن يحضر "الشقيق الأكبر". إنّه جزء من حرب

الاستنزاف. وهو، قطعا، ليس رميا للمسؤولية مفتوح الأفق (وإن كان تحوّل إلى ذلك لسبب خارج عن إدارة راعيه، الوفاة). "اتفاق القاهرة" صيغة لإنقاذ الوحدة اللبنانية، والتنسيق مع الفلسطينيين، وتحميل اللبنانيين، استدراكاً، بعض أعباء المعركة القومية.

ثانيا ـ تطويق نتائج "أيلول الأسود" في الأردن. هنا، أيضا، كان عبد الناصر مهتما بحماية المقاومة واحترام "السيادة الوطنية" الأردنية. ولقد فعل ذلك بالرغم من الانشقاق الفلسطيني ـ الناصري، وبالرغم من التهجّم عليه والتشهير به. في تلك الأيام صيغت العبارة الشهيرة: إذا كان عبد الناصر مع مبادرة روجرز فإنّ كثيرين من مهاجميه العرب مع... روجرز!

تثبت الحالتان اللبنانية والأردنية أنّ ناصر كان، بعد الهزيمة، الزعيم العربي الأكثر وزناً. ولقد كان كذلك لأنّ الجماهير العربية، في غالبيتها الساحقة، لم تضع البوصلة واستمرت تدرك أنّ الرجل لم يقل كلمته بعد، وأنّه جدّي في سعيه لاستئناف المواجهة. ولقد تأكّد ذلك عند وفاته. هذه الوفاة التي فتحت الباب أمام استكمال تصفية الوجود الفدائي في الأردن وأمام بدء التأسيس للحروب الأهلية اللبنانية بعد تحول "اتفاق القاهرة" من محطة محمية عربيا إلى ذريعة يستخدمها الراغبون في الانقضاض على المقاومة الفلسطينية.

اللحظة التي افتتحتها وفاة جمال عبد الناصر هي، بالضبط، اللحظة التي شهدت انقلابا في دور ياسر عرفات ووظيفة العرفاتية. لقد شرعت موازين القوى تنهار بحيث انتقل من لم يكن يمثّل أرقى مشاريع المواجهة إلى موقع في المقدمة. لكن ذلك حصل عند افتقاد القاعدة العربية لمشروع النهوض، وعند افتقاد القاعدة الأردنية لمشروع المقاومة الفلسطينية لإسرائيل.

كان عرفات جزءً موضوعيا من مشروع نهوض فبات عليه أن يقود حركة وطنية تسبح ضد التيار. ولقد فعل ذلك على امتداد حوالي ٣٥ عاما.

مع أنّ عقد السبعينيات شهد حرب تشرين التي حرم الفلسطينيون من المشاركة فيها، فإنّه يتميّز، في ما يخصّ منظمة التحرير، باندلاع الحروب الأهلية في لبنان. يقال الكثير في هذه الحروب، إلاّ أنّه يمكن الاكتفاء بملاحظتين:

الأولى، خلال هذا العقد سار الوضع العربي الإجمالي في اتجاه معاكس للوضع الدولي. افتتح بانعطاف الرئيس أنور السادات واختتم بالمعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية. وما بين الحدّين لعب المال النفطي دورا مؤثرا في صياغة السياسة والثقافة. وفي الوقت نفسه كانت ثورات وطنية

تتقدم في قارات العالم كلّه من أميركا اللاتينية، إلى آسيا، إلى أفريقيا. لقد تعزز الوضع الدولي للمعسكر الاشتراكي (اتفاقية هلسنكي) وساهم دعمه لحركات تحرر في توسيع نفوذه بالاستفادة من "الانفراج الدولي". حصل ذلك في كلّ مكان تقريبا إلاّ في الوطن العربي حيث كانت السياسة الكيسنغرية تحقق الإنجاز تلو الإنجاز وتشجع على محاولة اجتثاث الثورة الفلسطينية في لبنان.

الثانية، خلال هذا العقد، أيضا، شهدنا التجربة الفلسطينية ـ اللبنانية للسير في عكس اتجاه الوضع العربي.

لقد بدا أنّ ما يجري في لبنان جزء من حركة ثورية عالمية، ولكنه محروم من أي احتضان عربي. ومع أهمية هذه التجربة تدافعت العقائد العنيدة لتذكّر الجميع أنّ كمال جنبلاط، على أهميته الفائقة، لا يمكن أن يكون بديلا عن عبد الناصر وأنّ لبنان لا يمكنه أن يكون بديلا عن مصر العربية.

الاندفاعة الفائضة عن قدرة الوضع العربي على الاحتمال بدت وكأنها هروب إلى الأمام تدخّل هذا الوضع العربي لضبطه. فعل ذلك قبل أن ينشقّ نتيجة "زيارة القدس" وقبل أن تستفيد إسرائيل من هذا الانقلاب لتنفيذ غزوتها الأولى عام ١٩٧٨ وقبل أن تكتمل الشروط للغزو الكبير عام ١٩٨٢، وهو غزو لا يفهم إلاّ بتجدد الحرب الباردة مع رونالد ريغان، والاطمئنان إلى خروج مصر، وعودة اليمين الإسرائيلي إلى السلطة بما يثبت أن فوزه عام ١٩٧٧ لم يكن مجرد سحابة صيف.

قاد عرفات المقاومة في بيروت، ثم قاد الخروج إلى المنفى البعيد في تونس، قبل أن يعود إلى طرابلس ثم يضطر إلى مغادرتها. وبخروج قوات الثورة من لبنان انفكّ "الطوق" الفلسطيني من حول إسرائيل. قاد عرفات في هذه المرحلة وصولا إلى ١٩٩٣ سياسات متعارضة في الشكل. أقدم على مصالحة مصر والأردن ووظف ذلك في سبيل تجديد العمل المسلّح في الأرض المحتلّة. دعم الانتفاضة الأولى معلناً بدء تحوّل مركز الثقل إلى الداخل. خاض تجربة حوار غير مثمر مع الإدارة الأميركية. شرع يعدّ لمراجعة شروط التسوية عبر تعاط جديد مع القرارات الدولية. لم يتردد بالاستقواء بالعراق وخاصة مع انتهاء الحرب مع إيران، وبروز بغداد كنقطة استقطاب إقليمية.

لم تنجح هذه السياسات. اصطدمت الانتفاضة بسقف ما يستطيعه الفلسطينيون منفردين. انكفأ الأميركيون عن الحوار. تعرّض صدّام حسين إلى هزيمة. انهار المعسكر الاشتراكي. بات

الحديث عن حركة تحرر عربي ممجوجا. حوصر الفلسطينيون من الجهات كلّها وبدا أنّ رؤوسهم أينعت. ولم يكن عرب التحالف مع واشنطن في حرب الكويت ممانعين في قطف هذه الرؤوس، خاصة بعد انعقاد مؤتمر مدريد وترك منظمة التحرير في غرفة الانتظار.

في مثل هذه الشروط اتخذ ياسر عرفات واحدا من أصعب قرارات حياته على الإطلاق. كانت حساباته بسيطة حتى النهاية: لا أفق لأن تكون الثورة الفلسطينية جزءًا من حركة شعبية عربية (الثانية غير موجودة)، ولا أمل في أن تكون المنظمة جزءا من العمل الرسمي العربي التفاوضي. لقد انتهت المقاومة العربية الرسمية للدور الاستعماري الإسرائيلي تحت وهم أنّ الأنظمة توجّهت نحو الأصيل لتغنيه عن حاجته إلى الوكيل.

لم يعد الصراع، وهذه مبالغة بعض الشيء، يدور إلاّ حول حدود الكيان الإسرائيلي، وهو مرشّح لأن يستبعد الفلسطينيين أي المتضررين الأوائل من نشوء هذا الكيان ومن توسعه لاحقا في حرب ضدّ أنظمة عربية.

أدرك عرفات أنّه يملك الورقة السحرية التي تجعله رقما صعبا: لا تسوية في المنطقة من دون حلّ المشكلة الفلسطينية ومفتاح الحلّ في يده. قرر، في هذا الجوّ، الإقدام على القفزة في المجهول إلى داخل أشداق الوحش. أعرب عن جهوزية لتحرير إسرائيل من متاعب الاحتلال، وأوحى أنه طرف في تثبيت السيطرة الأميركية على المنطقة بمجرّد أن يسهّل تحويل واشنطن إلى قابلة الدولة الفلسطينية. لعب حتى النهاية ورقة القطرية الفلسطينية (القرار الوطني المستقلّ) في وجهها السلبي حيال العرب، وباعتبارها الورقة الوحيدة التي تركها العرب له. وأكثر من اللغط حول انتصارات الانتفاضة الأولى من أجل أن يبرر ما لم يصدر التاريخ حكمه عليه حتى الآن: اتفاق أوسلو.

يمثّل الاتفاق المذكور انتقال عرفات إلى التموضع في الهامش الضيق لتناقضات غير تناحرية: بين أميركا وإسرائيل، بين: الليكود" و"العمل"، بين مصر وإسرائيل، بين أوروبا وأميركا...

كانت السياسة الرسمية العربية تتحدّث عن "الأرض مقابل السلام"، لكن ذلك كان يعني في الواقع عرض استسلام سياسي على الولايات المتحدة يعبّر عن انتصار الدور الإسرائيلي على النهوض القومي العربي مقابل تدفيع إسرائيل ثمناً هو الأرض العربية المحتلة (أو القسم الأكبر منها) بما يعبّر عن ضبط توسعية الكيان الإسرائيلي. أي أنّ السياسة العربية كانت: الدور مقابل الكيان. تدفع إسرائيل من بعض التمدد وتحصل أميركا استتباب النفوذ والهيمنة.

تقضي الحقيقة القول بأنّ عرفات لم يكن يمانع في ذلك (لم يكن ثمّة مجال، ربما، لممانعة مثمرة). جاءت الممانعة من الطرف الإسرائيلي أساسا ثم من الطرف الأميركي. فالفهم البارد للتسويات الاستراتيجية لا يقيم وزنا كبيرا لطرف يحضر وكلّ عدّته التفاوضية حقوقه المشروعة غير القابلة للتصرف. أضف إلى ذلك أن نوع العلاقة الإسرائيلية ـ الأميركية يجيز للطرف الأول أن يحتفظ بمكاسب مهمة بالنسبة إليه في لحظة إهدائه رأس النهوض القومي العربي إلى الطرف الثاني.

اضطرّ عرفات إلى الانتقال إلى موقع جديد بعد أن أظهرت التناقضات غير التناحرية أنها لا تؤمن له حلاّ يرضيه. اندفع إلى التمترس في خندق الإصرار على "تسوية عادلة" معدومة شروط التنفيذ. انه موقع إرادوي بامتياز. لعلّ أفضل تعبير عنه أن عرفات كان يبدو سعيدا في الحصار الذي ضرب عليه في المقاطعة: لا حلّ معي إذا لا حلّ بدوني. أي بدون الحدّ الأدنى الوطني الذي أمثّل.

كان من الغرفتين المتبقيتين له يراقب انسداد الأفق أمام الفلسطينيين الذين يريدون الإقلاع بإدارة الظهر له. وانسداد الأفق أمام فلسطينيي العمليات الاستشهادية. لقد فرض حصارا على التسوية، حصارا يزعج الراغبين فيها من فلسطينيين وإسرائيليين وقوى عربية ودولية من دون أن يسبب الانزعاج نفسه لمن لا يهتمّ لأمرها.

وجاءت تفجيرات أيلول ونتائجها، الحقيقية أو المفتعلة، لتدخل معطى جديدا: لم يعد الفائض الاحتلالي الإسرائيلي هو المشكلة وإنّما النقص الديمقراطي الفلسطيني. هذه كذبة توازي في ضخامتها كذبة أسلحة الدمار الشامل في العراق سوى أننا لا نملك مفتشين دوليين للتأكّد من الأمر. لم يكن ممكنا إعادة إيقاف الحقائق على أرجلها إلاّ بمسار طويل وشاق وغير مضمون النتائج. انّه المسار الذي يفتتحه غياب عرفات والذي يبقى أفقه، في أحسن الأحوال، غامضا.

من الظلم محاسبة عرفات على أفكاره. لقد كانت بسيطة. لكن ذلك لا يمنع "العرفاتية" من أن تكون، مثل حركة "فتح"، ومثل الحركة الوطنية الفلسطينية كلّها شديدة التعقيد والالتباس، خاصة إذا نظرنا إليها في سياق التطورات العاصفة التي شهدتها الأمّة العربية خلال نصف قرن.

تمثّل العرفاتية حالة تداخل بين "القطري" و"القومي". وقطريتها ذات وجهين. فهي تعني "كيانية فلسطينية" ضد التبديد الإسرائيلي كما تعني، عبر "القرار الداخلي المستقلّ"، موقفا ضد المصادرة العربية الرسمية، وتحديدا تلك التي تريد المصادرة من دون تقديم بديل أرقى.

مع ترسّخ الدولة القطرية العربية، ومع التخلّي التدريجي عن القضية الفلسطينية، بات حصول الشعب الفلسطيني على دولة خطوة هائلة إلى الأمام. غير أنّ هذه الخطوة نفسها تعني حصول قدر من الانتكاس عن الحلم القومي خاصة إذا كان تحقيقها يمرّ بالاعتراف بإسرائيل، والتطبيع معها، وتكريس واقع التجزئة. لكنّ المشكلة هي أنّ هذا المطلب الوطني في حدّه الأدنى غير ممكن إلاّ باحتضان عربي يبدو أننا انحططنا إلى ما دونه.

والعلاقة بين القطري والقومي، في الحالة الفلسطينية، مفتوحة على الازدواج الإسرائيلي بين الكيان والدور. فإسرائيل الكيان هي، افتراضيا، ملجأ لليهود من الاضطهاد الأوروبي، ولكن إسرائيل الدور هي قاعدة متقدمة لفرض المصالح الأوروبية (ثم الأميركية). إسرائيل الكيان تعني تبديد الفلسطينيين، وإسرائيل الدور تعني إخضاع العرب.

بين هؤلاء من "اكتشف" الدور وقاومه. ولكن بينهم أيضا، من اعتبر أنّ الردّ على الدور يكون بإلغائه عبر تحقيق أهدافه بواسطة الخضوع الطوعي للغرب. ولقد قادت الهزائم المتتالية إلى تغليب وجهة النظر الثانية. بحيث بات البحث محصورا بدفع الكيان الإسرائيلي إلى التراجع بعد ما أدى دوره في توجيه ضربة قاسية إلى النهوض العربي.

لقد وجد عرفات نفسه أمام معضلة صعبة الحلّ. إن قيادته الشعب الفلسطيني لمقاومة الدور الإسرائيلي حيال العرب مهمة اكبر منه، ومن شعبه، بما لا يقاس، ومستحيلة التنفيذ في ظلّ الانهيار العربي. لم يعد أمامه سوى أن يسعى إلى القضم من التوسعية الإسرائيلية. ولقد رحل من دون أن نملك جوابا حول الإمكانية الواقعية لإنجاز ذلك.

رحل عرفات إذا من دون أن يكون وصل إلى الضفة الأخرى. لقد عاش دائما في حالة ما هو أكثر من ثورة وأقلّ من دولة: من الأردن، إلى لبنان، وصولا إلى الأرض المحتلّة بعد المنفى التونسي. لسنا هنا، أمام أرض محررة تعيش حالة ثورية يراد لها أن تمتد على الوطن كلّه، يعيش الثوار فيها ومنها في انتظار استكمال التحرير. المقاومة الفلسطينية حالة شعب ثائر في أرض لا يملك سيادة عليها وبموارد خارجية. إنها مقاومة ريعية ومفتوحة بالتالي، على الضغط الخارجي

ومضطرة إلى إعالة مؤسسات متنوعة لدولة جنينية، أو قيد التحقيق.

من السخف تماماً اتهام عرفات، بهذا المعنى، بأنّه لم يكن رجل دولة أو بأنّه لم يحسن الانتقال من قائد ثورة إلى رجل دولة. ومصدر السخف أنّ حالته الواقعية كانت تمنعه من ذلك، وأنّه كان مضطرّاً أحيانا، ومن دون أن ينجح دائما، في دمج مهمّتين تاريخيتين منفصلتين في لحظة واحدة.

إذا كان الاتهام السابق لعرفات غير مقنع فإنّ الاتهام المقنع، بالمقابل، هو أنّه لم يظهر مرّة أنّه شديد الوعي لما تعنيه المسألة اليهودية في العالم.

لا تخضع الحركة الوطنية الفلسطينية لمحاكمة أخلاقية بموجب المعايير المطبقة على العالم الثالث. فمعركتها، في جانب جوهري منها، تخاض وفقا لمعايير أوروبية لأنها، بطريقة ما استمرار لصراع دار هناك بين أوروبيين وأوروبيين قبل أن ينتقل إلى هنا فيتوحد الأوروبي الجلاّد، مع الأوروبي الضحية في إلقاء عبء جريمة ارتكبت في غير فلسطين على فلسطين وأهلها.

إنّ وجها من وجوه النضال الذي قاده عرفات هو ضد الضمير الأوروبي المعذب بفعل المصير اليهودي في القارة. وهذه مسألة داخلية في كلّ بلد أوروبي، كما في مرحلة لاحقة، في الولايات المتحدة.

ويعني ذلك أنّ من يدخل في مواجهة من هذا النوع لا يمكنه أن يدع جانبا وعيا كونيّا وتاريخيا يتجاوز، بما لا يقاس، حصرية الصراع بين غزوة استعمارية عادية، ومواطنين من أهل البلد، وأي بلد! أدرك عرفات البعد العربي والإسلامي لثورته، ولم يدرك كفاية البعد الأوروبي والغربي ل "قضية" خصومه.

لم يتأكّد ذلك قدر تأكّده في المراحل الأخيرة لحياة الرجل، مراحل حصاره في المقاطعة. لقد بدا هنا أنّ "القليل" الذي "ارتكبه" قابل للتوظيف من أجل أن يرتدّ ضدّه في شكل قد يكون عجز عن فهمه. لقد كان الحصار قرارا سياسيا ترجم العدوانية الأميركية والتوسعية الإسرائيلية والتدهور العربي، واللامبالاة الأوروبية، إلاّ أنّه دلّ، في معنى ما، على أنّ الرصيد الأخلاقي الذي تغرف منه إسرائيل، تسرق منه بالأحرى، قادر على الصمود في وجه التبذير الشاروني.

ومن علامات هذا الصمود الزعم بأنّ غياب عرفات هو انزياح عقبة من درب السلام. هذه أكذوبة جديدة ستجد لنفسها مكانا مرموقا في سجلّ الأكاذيب الذي يحفل بها صراع يعود إلى عقود وسيمتدّ إلى عقود.